تقويض مُعتمَد قديم
او تفصيل هول عظيم

بقلم حضرة الكاتب الاريب يوسف افندي البستاني
احد منشئي جريدة الاهرام الغرآء

قام في اوهام المؤرخين والكتاب وفلاسفة الاخلاق والطبائع معتقدٌ راسخ بلغ من الافكار مبلغ الحقيقة الراهنة حتى عُدَّ من يعارضهُ جاهلاً غافلاً في مذهب جميع الاوربيين على اختلاف النزعات والطبقات وذاك المعتقَد المأثور هو ان الشرقي اضعف عزماً وعقلاً وادنى خُلقاً وطبعاً من الاوربي . ولقد وُفّق أَهل هذا المذهب الى براهين قويَّة يفحمون بها المعترضين وما هي بالبراهين التي يمكن انكارها لانك لا تلتفت التفاتةً الى تواريخ الأُمم حتى يقع نظرك على ذكر اعمال عظيمة واختراعات جليلة وتآليف طافحة بفرائد الفوائد لعظمآء اوربا فلا يبقى في وسع المنصف الا أَن يقرّ لهم بالفضل والتقدم . واذا كان هناك ما يستحق الاعتراض في ذاك المذهب فانما هو مغالاة الاوربيين في الاستهانة بالشرقيين وتشهير انحطاطهم والقول بان الارتقآء الى درجة الاوربي مستحيل عليهم . واني اذكر كما يذكر كثيرٌ من المطالعين ان معظم جرائد اوربا قامت تهزأ بالانكليز يومَ حالفوا اليابان وتقول ان أبنآء التاميز ادركهم الهلع لما رأوا انفسهم فيهِ من العُزلة فالتفتوا يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً فلم يجدوا الاّ اولئك القَزَم الصفر الشرقيين . وذلك ان الصيني والياباني والسيامي وسائر ذوي الجلدة الصفرآء كانوا يعدّون أَنزل مقاماً واصغر نفوساً عند معظم الاوربيين

من سائر الشرقيين البيض . ولما وقف الامبراطور غليوم الثاني منذ بضع سنوات وقال « حذارِ من الخطر الاصفر » ضحك اكثر الكتاب ملء الاشداق وقالوا « ان جلالتهُ في اضغاث احلام »

اما اليوم فان اشدّ القوم مغالاةً في القول بانحطاط الشرقي قد بدّلوا من خطتهم ولطفوا من لهجتهم لان الحرب الروسية اليابانية اتتهم بما لم يكن في الحسبان ودلتهم على ان الشرق لا يستحيل عليهِ ان يُنبت عقولاً كبيرة ونفوساً عالية وعزائم تقوّض الرواسي . ولقد صدق منشئ الفيجارُو في قولهِ « اذا كان المؤرخون العصريون يريدون ان يجروا على سَنَن رصفآئهم القدمآء فمن الصواب ان يجعلوا معركة موكدن او معركة تسوشيما بدآءة عصرٍ تاريخي جديد كما جعل الذين قبلهم فتح الآستانة سنة ١٤٥٣ فاتحة التاريخ الملقب بالحديث وخاتمة تاريخ القرون المتوسطة لان السيادة المطلقة التي نالتها اليابان في بحار الشرق الاقصى بل في ذاك الشرق كلهِ ستفضي الى نهضةٍ عامةٍ في ذلك الجزء الكبير من العالم فنرى عاجلاً او آجلاً اولئك الصينيين جنوداً بارعة تحت إمرة قواد يابانيين شهد لهم السيف مع العالم كلهِ واذا كان من المستحيل عليهم ان يتسلقوا اسوار بطرسبرج او باريس فقد سهل عليهم ان ينظروا الى الشرق الاقصى كلهِ نظرة السيد الاكبر » . اهـ . فحسبُ اليابان مجداً وشرفاً ما بلغوهُ بهذه النهضة الكبرى وعلى ذلك الحلم الذي حلمتهُ اوربا بتقسيم ذلك الشرق السلام

*
* *

وههنا يقف المتبصر هنيهةً والقلب كعصفورٍ في قفص حين يفكر

في تلك الاهوال التي ركبتها اليابان وخطّت عليها لنيل ذاك المجد ومحو ذلك الحلم ولا نرى شيئاً ابلغ في العبرة من الصورة التي تراها هنا للمصور الروسي فرشنجين الذي غرق في بور ارثور

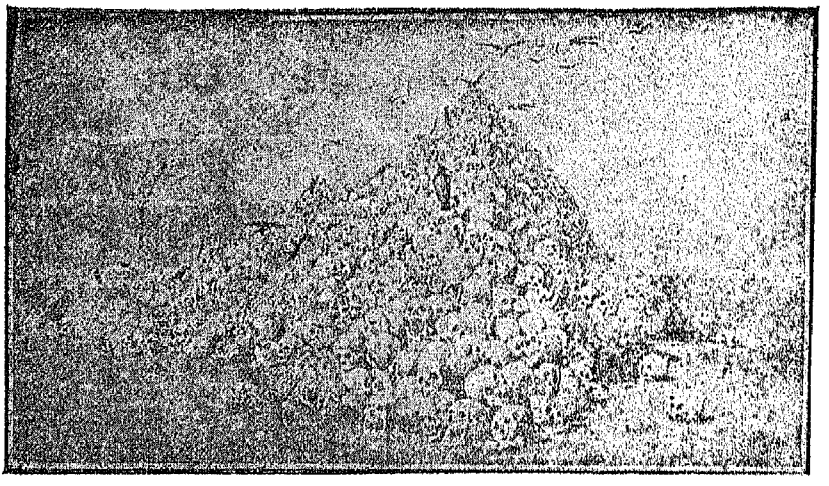

انظر الى هذا الهرم من الجماجم وقد كُشط جلدها وعُرق عظمها وصهرتها الشمس وسحتها الرياح وبرتها عناصر الطبيعة وحامت فوقها جوارح الفلا ونسور السمآء وهي كل ما بقي على اثر معركة شربت فيها الالوف كؤوس الحتوف . وحسبُ القارئ ان يتصور ان هذا المنظر الهائل قام مثلهُ في بور أرثور وفي لياوينغ وفي موكدن ليتمثل لهُ ذلك الهول الجسيم

وأيُّ حربٍ في العالم اكتسب فيها المنتصر المجد والفخر ولم تكن فظيعة في ذاتها وان تكن شريفة في المبدأ الدافع اليها . اننا لا نلوم الامة التي تسفك دمآءها وتبذل ابنآءها وتنفق الاموال وتقتحم الاهوال للدفاع عن وطنها واستقلالها ولكن اللوم كل اللوم بل الجرم العظيم

الفظيع انما هو لملكٍ او سلطان يبذل الاموال والرجال ويُثكِل النسآء ويُيتِّم الابنآء لكلمةٍ او نزوة طبع او طمع في بقعة من الارض في اواخر المعمور. ولقد طالعت احصآءً يدلّ دلالةً ناصعة واضحة على ما تفعلهُ مطامع الافراد في نفوس العباد يؤخذ منهُ ان نابوليون غزا روسيا في سنة ١٨١٢ بجيش يبلغ ٧٠٠ الف رجل فلم يرجع منهُ سوى ٣٣ الفاً كما يثبت التاريخ. وان انتصارات نابوليون افقدت فرنسا ثلاثة ملايين رجل وافقدت اوربا اربعة ملايين. وان حرب القرم ابتلعت ٨٠٠ الف رجل والتهمت معارك ايطاليا ٣٠٠ الف وابادت معارك روسيا والنمسا مثل هذا العدد واهلكت حرب فرنسا والمانيا في سنة سبعين ٨٠٠ الف وزهقت ارواح ٤٠٠ الف في الحرب الاخيرة بين الدولة العلية وروسيا وبلغت خسائر اوربا في حروبها الاستعمارية منذ فتح الهند الى فتح مدغسكر فقط ثلاثة ملايين نفس

فاذا اضفت ما تقدم الى سائر الخسائر التي لحقت باوربا في القرن التاسع عشر الملقب بعصر التمدن والفلاح بلغت لا اقلّ من خمسة عشر مليوناً من النفوس والله اعلم كم تبلغ خسائر الروس واليابان في حرب لم يذكر التاريخ مثلها. واليك الآن روايةً قصها المصوّر الروسي المتقدم الذكر قال

« ذهبت الى پلّيڤنا بعد محاصرتها مدة ثلاثة اشهر لارى اخي العزيز بين القتلى فبحثت طويلاً فما وقع نظري الاّ على جماجم كاشرة مشوّهة الهيئات مقلّصة الجلود وهياكل من العظام مغطّاة بقطع من الاسمال البالية وأيدٍ كأنها تشير الى السمآء ولم أتمكن من معرفة اخي بين تلك الجثث المتراكمة فاغرورقت عيناي بالدموع وتصاعدت من صدري الزفرات» اهـ.

وكاني بهِ قد اتسع لديهِ نطاق الاخآء في ذلك الموقف الاليم حتى تساوى عندهُ جميع القتلى وذاك الاخ الذي نزل واياهُ من صلب واحد

* * *

تلك هي اهوال الحرب وذاك هو ثمن الانقلاب العظيم الذي يتوقعهُ العالم بعد هبّة الميكادو والله اعلم بما سيكون من بعدهِ من الامور الكبيرة والحوادث الخطيرة والله مقلّب الليل والنهار وفي يدهِ مقاليد الامور

الرسالة الشينية (*)

وهي التي كتب بها الامام ابو محمد القاسم بن عليّ بن محمد بن عثمان الحريري الى الشيخ الامام شمس الشعرآء طلحة بن احمد النعماني رحمهما الله تعالى • قال

بارشاد المنشئ انشئ

شَعَفني[1] بالشيخ شمس الشعرآء رِيشَ[2] معاشُه وفَشا رِياشُه[3] وأَشرَق شهابُه واعشوشب شِعابُه[4] يشا كل شَعَف المنتشي بالنُشوة[5] والمرتشي بالرُشوة والشادن بشرخ الشباب[6] والعطشان بشَبِم[7] الشراب وشكري

(*) راجع الجزء السادس عشر صفحة ٤٩١ وما يليها ١ بمعنى شغفني بالمعجمة وهو فرط الحب ٢ مجهول راشهُ اي اصلح حالهُ واعانهُ على معاشهِ ٣ فشا اي كثر وانتشر والرياش الخصب والمعاش والمال والاثاث ٤ يقال اعشوشبت الارض اذا انبتت العشب • والشعاب جمع شعب بالكسر والمراد به هنا الناحية والفنآء ٥ المنتشي السكران والنشوة الاسم منهُ والحرف متعلق بشعف • وسائر المجرورات بعدهُ معطوفة عليهِ ٦ الشادن الصغير الذي قد قوي وترعرع واكثر ما يستعمل في اولاد الظبآء • وشرخ الشباب اولهُ ٧ بارد